5 -طبيعة الأدب

رغم كل الحديث عن تعريف دقيق للأدب، إلا أن تحديد ما ينتمي للأدب وما يخرج من دائرة الأدب ليس بالأمر الهين. وترجع الصعوبة إلى ما تكرس منذ قرون حول طبيعة الأدب وهويته وتعريفه.

فقد قرن البعض الأدب بالمطبعة والطبع، والتسليم بهذا التعريف مقتضاه أن كل ما أنتجه الإنسان يشكل جزءا من الأدب أو أدبا بالمعنى الدقيق للكلمة. وهذا التوسيع تنجم عنه تداخلات بين الأدب وبين تاريخ الحضارة. فالمنتج البشري يشكل محور تاريخ الحضارة سواء تعلق الأمر بما كتب في الأدب أم بما كتب في الطب والسحر والبيولوجيا وغيرها، والجامع بين هذا الانشغال بكل هذا المنتج، والأدب هو كونهما مادتين مكتوبتين، والمدافعون على هذا الطرح يبررون ذلك بعدم اهتمام المؤرخين إلا بمعطيات تاريخية وأحداث عسكرية وهو ما يقصي كل ما يمت للإبداع بصلة، ويمكن التمثيل لذلك بما شهده الأدب المغربي القديم من امتزاج لمعظم إنتاجاته بمادة تاريخية كثيفة تكاد تخفي كل هذا المنتج.

إلى جانب تحديد الأدب في علاقته بالطبع والكتابة، توجد آراء أخرى تقصر الأدب على الكتب العظيمة، أي الكتب المشهورة بشكلها الأدبي أو بصياغتها التعبيرية بغض النظر عن الموضوع الذي تعالجه. لينقسم الأمر بين محورين، إما محور جمالي صرف، وإما يقترن فيها الجمالي بالفكري والمعرفي.

إن التداخل بين الأدب والفكر أمر لم يتم الحسم فيه إن لم يكن من المستحيل الحسم فيه، خاصة حين نتأمل كتب تاريخ الأدب وما تحفل به من أسماء لمفكرين وفلاسفة وصناع أفكار، فمن الصعب التأريخ لتيارات أدبية أو مدارس إبداعية دون تأمل تفاعلات جوارها المعرفي، لذلك لا يستقيم الحديث عن الأدب والتأريخ له بمعزل عما عرفته المرحلة التاريخية أو الموجة الفكرية من أسماء لمفكرين أسهموا في تشكيل أسئلة المرحلة وقضاياها، فهل يمكن التأريخ للأدب الإنجليزي مثلا في القرن الثامن عشر دون الإشارة مثلا إلى بيركلي وهيوم؟

غير أن تناول مؤرخ الأدب لهؤلاء وغيرهم ليس من باب التأريخ للفكر والفلسفة، ولكنه يمارس حقا طبيعيا تحركه أسئلة دارس الأدب، بل وتجعل حتى تأريخه لهم يندرج ضمن انشغالاته بالأدب والدراسات الأدبية دون أن يتجاوز ذلك إلى التعمق في تاريخ الفلسفة أو الاقتصاد أو غيرها مما نبغ فيه هؤلاء.

هناك إشكال آخر ينضاف إلى الإشكال السابق، ويرتبط بالاقتصار على الكتب العظيمة، فهذا الانحصار في النوعية من الكتب قد تكون له فوائد جمة على المستوى التربوي، إلا أنه على المستوى الإبداعي قد يؤدي إلى امتداد القديم في الجديد، وإلى تكريس أعراف أدبية تتحول بموجب ذلك إلى قواعد جافة تقتل الإبداع، فالمطلوب بناء رؤى جديدة وتجاوز ما كان سابقا، لأن ذلك يسهم في خلق أنواع أدبية جديدة تتمرد على القديم، بل ويؤسس لأنواع أدبية تواكب التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

6-الأدب واللغة والتخييل

يميز بعض الدارسين الأدب والعلوم الإنسانية عامة عن باقي العلوم بطرق تعاطيها مع اللغة، لذلك يعرف البعض الأدب باعتباره استعمالا خاصا للغة، فاصلين بين الاستعمالين انطلاقا من مضمون فكري معرفي وآخر انفعالي يسعى إلى تحريك الشعور والانفعال.

غير أن ذلك لا يعني خلو الأدب من الفكر، ولا حبس اللغة الانفعالية على الأدب، بل نجد تداخلا في الاستخدام اللغوي بين الأدب والعلوم، وهو ما كشفته بعض الدراسات حين تناولت الاستعارة في الخطاب العلمي، كما كشفته دراسات أخرى تبحث في الأبعاد الفكرية لكل الممارسات الأدبية.

فلغة العلوم تقوم على الاعتباطية إلا أنها لا تحتمل تعددا دلاليا، لأنها تخاطب مستمعا كونيا auditoire universel، في حين تقوم لغة الأدب على تعدد دلالي، فالمعنى يتراوح بين ثلاثة قصود: قصد النص وقصد المؤلف وقصد القارىء. فاللغة الطبيعية تخاطب مستمعا خاصا auditoire particulier، بمعنى أن اللغة الطبيعية تفتح باب التأويل لفهم مقاصد النص، كما أن الخطاب الطبيعي عرضة للتعديل وغير قابل للنقل الحرفي، بل إن الذات الناقلة للخطاب تتدخل في تعديل معطياته ويحمل الخطاب لهجة المتحدث وموقفه، في مقابل الخطاب العلمي الذي لا يحمل شيئا من بصمات القائل.

فلغة العلم تكتفي بنقل المعلومة من المتكلم إلى المخاطب، هو ما يعني الحياد شبه التام، بينما تتجاوز اللغة الطبيعية ذلك للبحث عن التأثير في المخاطب أو إقناعه.

إن معيار اللغة يظل مع ذلك غير كاف في حسم الفوارق والصلات بين الأدب والعلوم الطبيعية، بل يمكن لموضوع اللغة هذا أن يثير أسئلة أكبر عند محاولة الفصل بين اللغة في الأدب وبين اللغة في الكلام اليومي، لذلك وجدت بعض الدراسات معيارا آخر للتمييز بين الأدب وغيره، إنه معيار الخيال والابتكار والإبداع، فهل يمكن لهذا المكون أن يفصل بين خطابين ينتسبان إلى حقل اللغة لكنهما يصدران عن مصدرين متباينين؟

تعتبر بعض الدراسات أن ما يميز الأدب هو أنه يصدر عن المخيلة ويستهدف المخيلة، فهو في الأصل ابتكار وابتداع واختراع، وهو تمييز قد يبدو معقولا إذا استحضرنا عينة محدودة من المبدعين أمثال هومر ودانتي وشكسبير وبلزاك وكيتس وغيرهم، إلا أن هذا التمييز يصطدم بعائق آخر، ويتمثل في إقصائه لنصوص غير محسوبة على الأدب إلا أنها لا تعدم وجود مكونات تنتمي إلى التخييل ويمكن أن تنطبق عليها المعايير الجمالية. ونقصد بها هنا نصوصا كالتي أبدعها شيشرون أو أفلاطون أو المعري أو ابن طفيل وغيرهم. وهي نصوص تحسب علميا على الفكر والفلسفة، إلا أنها من حيث البناء تتوفر على مقومات جمالية قوامها التخييل والاختراع، وهو ما يجعل التنكر لها أمرا في غاية الصعوبة.

فلو عدنا إلى أفلاطون خاصة في كتابه "الجمهورية" فسنجد الكتاب متوزعا بين حقول معرفية عدة، فهو محسوب على الفكر والفلسفة، إلا أنه يستخدم صيغا سردية وأساطير تم توظيفها أدبيا لإنتاج أفكار فلسفية عن المدينة الفاضلة أو دولة الفيلسوف.

أما ابن طفيل في رائعة حي بن يقظان فقد اعتمد على القصة الفلسفية لتفسير أسرار الحكمة المشرقية، ورغم أن النص لا يعلن انتماءه إلى الأدب بشكل صريح إلا أن المدخل السردي لقراءة النص أو المدخل البلاغي أو الصوفي يكشف وجها آخر لهذه القصة الفلسفية، خاصة حين توظف كل هذه المكونات للتبليغ والإقناع.

وفي إطار هذا التمييز دائما بين الأدب والعلم، نجد دارسين ينكرون قدرة "العقل الأدبي" على ادعاء اكتشاف الحقيقة. والسبب في ذلك يرجع إلى اعتبارهم "العقل الأدبي" عقلا هاويا يستثمر إمكانات اللغة للإيهام بالنطق بالحقائق. وهذا الأمر يحتاج إلى تدقيق، فهو رأي يوهم أن المطلوب من الأدب هم كشف الحقيقة، في حين أن المطلوب منه فعليا هو جعل القارئ يدرك ما يرى، وتمكينه من تخيل ما سبقت معرفته بشكل تصوري أو عملي.

إن هذا الربط بين الأدب والخيال أو بين الأدب والمحاكاة لا ينبغي أن يقودنا في المقابل نحو ربط الأدب بالكذب، فمقابل التخييلي هو الواقعي وليس الصادق أو الحقيقي، فالأدب هو الحقل التجريبي لمفاهيم الفلسفة ومنظومتها المصطلحية، فعن طريقه يتم تفسير المصطلحات الفلسفية واختبارها.

فالسؤال الذي ينبغي أن يطرح في منطقة التماس بين الفلسفة والأدب هو ما مفهوم الحقيقة؟ والمعرفة والحكمة؟ وما هي سبل الوصول إليها؟